التنمية الثقافية من المفهوم إلى الممارسة

حمزة سوسدي
مختبر : الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتورجيا
كلية اللغات والآداب والفنون بالقنيطرة
المغرب

تمهيد :

تعد التنمية عملية متعددة الأبعاد ومتنوعة المجالات ورغم أن النمو الاقتصادي كان يشكل جوهر عملية التنمية والقوة الدافعة لها فإنه تراجع مع الوقت وأصبح يأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الأخرى للتنمية، فأصبح تحقيق التنمية اليوم مرهون بتبني نظرة شمولية لمختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. واعتماد معايير وشروط الحكامة الجيدة في نفس الوقت تبني مبدأ المقاربة التشاركية عبر إشراك مختلف الفاعلين المحليين والمركزيين في السياسات العمومية والمخططات التنموية. ومن خلال ماتقدم سنحاول في المطلب الأول معالجة المفهوم وتطوره أما المطلب الثاني فسنتطرق الى إبراز تقاطع مفهوم التنمية بالممارسة المسرحية.

يمكن ربط التنمية الثقافية على اعتماد " تبني إستراتيجية قد يمكنها الالتقاط والإحاطة بتلك الإسهامات المتنوعة للثقافة في علاقتها برفاهية الإنسان". فالثقافة يمكنها أن تسهم في التنمية بطرائق عدة، فأولا من خلال توليد نشاط اقتصادي مباشر، عن طريق العروض وتبادل السلع والخدمات الثقافية، وثانيا، من خلال قدرة الفنون على تحرير أو تشجيع الخيال الإنساني، ثالثا عن طريق غرس التضامن والشمول والتعاون داخل المجتمع، وللفنون كذلك دور ضروري، وعلى نحو مباشر أو غير مباشر"1

المطلب الأول التعريف المعجمي والنظري لمفهوم التنمية

وبالتالي يمكن القول أن مفهوم التنمية يطرح العديد من الصعوبات على مستوى الإحاطة به وبمكوناته وأبعاده النظرية وبتطبيقاته العلمية الميدانية. بحيث أنه يمكن اقتراح توضيح مفاهيمي من خلال الوقوف عند الحقل المعجمي والمفاهيمي للمفهوم (الفقرة الأولى) ثم سيتم الحديث عن مراحل تطور المفهوم في (الفقرة الثانية)

الفقرة الاولى : الحقل المعجمي

سنتطرق في هذه الفقرة الى كل من التعريف اللغوي لأهميته العلمية في توضيح دلالات المفهوم ثم التعريف السوسيولوجي باعتبار التنمية ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى عرفتها مختلف المجتمعات منذ سنوات.

أولا: التعريف اللغوي

تعني كلمة التنمية لغة من الفعل "نمى" كما في القول "نمى المال" ونمى الحديث الى فلان أسنده له ورفعه ونمى الرجل الى أبيه نسبه وانتمى هو انتسب.

وفي اللغة الانجليزية يأتي مصطلح تنمية DEVELOPMENT من الفعل DEVELOP أو النشوء فيما ينمو نموا الى أن زاد ونما الرجل" 2

فا لنماء يعني أن الشيء يزيد حالا بعد حال من نفسه، وبذلك فإن دلالات المفهوم في اللغة العربية لا تعد مطابقة للمفهوم الانجليزي développent الذي يعني التغيير الجدري للشيء

ثانيا: التعريف السوسيولوجي

إن مشكلة تعريف التنمية هي مثال لما كتبه جرى روس GERRY ROSEعن (حل شفرة الابحاث الاجتماعية في ماكميلان سنة 1982) تحديد المفاهيم والمؤشرات يقول روس لابد أن نكون على حذر عند الانتقال من المستوى العام للأفكار المجردة والكلمات التي ليس لها وضوح في تعريف المعاني مثل التنمية.

لقد بذلت محاولات عديدة لتحديد مفهوم التنمية، فمن التعريفات مايؤكد على استخدام التكنولوجيا الحديثة والتحديث، وأنها عملية شاملة تضم عدة جوانب منها ماهو اقتصادي وسياسي واجتماعي وثقافي، كما تعرف التنمية على أنها عملية تستند إلى الاستغلال الرشيد للموارد بهدف إقامة مجتمع يتميز بتطبيق التكنولوجيا، والتضامن الاجتماعي الواسع الأفق، والتحضر والتعليم، إذن فهي تفرض تحقق الدينامية والتغيير والتصنيع والاستقلالية.

ومن التعريفات من يركز على البعد الثقافي، ويرجع هذا الاختلاف الى اختلاف المنطلقات النظرية كما يمكن القول أن للتنمية اتجاهين مادي أسس دعائمه كارل ماركس واتجاه مثالي أسسه فيبر ويمكن تعريف مفهوم التنمية بطرق مختلفة معتمدين على سمات الافراد وطريقة حياتهم وكيف يعيشون أو على المجتمع ككل. كما تتمثل التنمية في تقديم خدمات ثقافية واجتماعية للمواطن لان طابعها إنساني فهي تنمية إنسانية تشمل كل الحاجيات والخيارات والفرص ليتمكن الإنسان من تحقيق ذاته.

كما عرف "لوسيان باي التنمية بأنها عملية تغيير اجتماعي متعدد الجوانب غايته الوصول الى مستوى الدول الصناعية " نصر محمد عارف

لقد أعطت الأمم المتحدة تعريفا للتنمية في سنة 1955 على أنها "العملية المسومة لتقدم المجتمع جميعه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا بالاعتماد على إشراك المجتمع. كما عرفتها في سنة 1956 على انها العمليات التي يمكن بها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية" 3

وفي سنة 1990 تم تبني المفهوم من طرف برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، فلقد أصبح الإنسان محور التنمية وهدفها. على اعتبار أن الثروة البشرية أو الرأسمال البشري هو الثروة الحقيقية لكل دولة، فإن تطور أي أمة رهين بما تتوفر عليه من طاقات بشرية منتجة قادرة على التعامل مع الواقع الاجتماعي بفعالية حيث يقوم مفهوم التنمية البشرية حسب البرنامج الأمم المتحدة على" أن البشر هم الثروة الحقيقية للأمم وأن التنمية البشرية هي عملية توسيع خيارات 4

وبالتالي أصبح مفهوم التنمية البشرية عبارة عن:

– عملية توسيع خبرات الناس بزيادة القدرات البشرية

– عملية متكاملة ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية تهدف إلى تحقيق رقي متواصل لرفاهية وسعادة الناس.

– عملية تتأسس على عيش الإنسان حياة صحية، وأن يكون مزودا بالمعرفة والثقافة، وأن يكون بإمكانه الوصول الى حاجياته بما فيها الانخراط في المجال الفني والثقافي.

وعلى ضوء ماسبق هل يعتبر المسرح كفن وصناعة ضمن البرنامج التنموي للمؤسسة السياسية وهل يعتبر ضمن أولويات القطاع الوزاري الوصي؟هل هناك سياسة ثقافية ؟كما سنتطرق الى مفهوم الثقافة لارتباطه الوطيد بنشأة المسرح عبر الطقوس الإغريقية ولا رتباطه بالشأن الثقافي المغربي.

المطلب الثاني : التنمية الثقافية :

على ضوء ماسبق يمكن القول أن مفهوم التنمية ارتبط بشكل كبير بالتحولات الكبرى التي شهدها العالم وبالمتغيرات لاقتصادية والتكنولوجيا دون أن ننسى الثقافة باعتبارها مكونا أساسي للمجتمع فلا يمكن أن يزدهر الفعل الثقافي المسرحي بدون رؤية وإستراتيجية شاملة تعنى بالاقتصاد والسياسة وإذا إعتبارنا أن محددات التنمية الأساسية هي بناء الإنسان والرقي به فهل يمكن أن الحديث عن تنمية ثقافية مسرحية؟

"يقصد بالتنمية الثقافية تلك المنهجية التي تستوعب كل منتجات المجتمع لتحوله في النهاية إلى أنشطة فكرية واجتماعية يتم ممارستها في المجتمع، ويتفاعل معها الأفراد بأساليب متفاوتة بحيث تكون في النهاية عنصرا أساسيا في تحديث إدراكهم لواقعهم الاجتماعي.

إن التنمية الثقافية تشمل جميع مقومات الثقافة وعناصرها وأبعادها فهي بالنسبة للمجتمع لحضة معينة في نموه الاقتصادي والاجتماعية يجب أن تعبر عن شكل العلاقات المتبادلة بين الإنسان والمجتمع. ولا يمكن للتنمية الثقافية أن تكتمل دون مساهمة الأنساق الاقتصادية والتربوية والاجتماعية إذن فغيابها يخلق هوة ثقافية بين الأفراد وتلك ألأنساق. وتعتبر التنمية الثقافية أكثر من ضرورة للبناء الاجتماعي، فمن خلالها تتغير المسارات الاجتماعية نحو الأفضل ويمكن من خلالها أيضا إدارة العمليات الفكرية للمجتمع بطريقة فضلى كما أنها تسمح للمجتمع بتطوير آليات تحقيق الوعي الجمعي، وردم الهوة بين مقومات النمو والتحديث الاقتصادي للمجتمع، فالمجتمع القادر على تحقيق النمو ليس بالضرورة المجتمع القادر على النمو الاقتصادي ولكنه الذي يستطيع التحديث من خلال خلفيته الفكرية والثقافية."5

وبما أن "الفنون تجسد الإبداع والابتكار فإنها تمتلك أيضا دورا رئيسيا في عملية تبني المعرفة من أجل التنمية وذلك لان تعليم الفنون يضطلع بأمور تفوق مجرد الزيادة في الاحتمالات الخاصة بالإنتاج. إن تعليم الفنون قد

يساعد التلاميذ على تطوير حب الاستطلاع المعرفي لديهم، وان ينشئوا كذلك علاقات بين الفنون والموضوعات الأخرى التي يدرسونها، وأن يتقبلوا بسرور التعاون مع الآخرين، وأن يدركوا بأن الفوز لا يكون معناه، دائما، الكسب، وأن يتعاملوا بكفاءة مع الغموض، ومثل هذه المعرفة تساعد الطلاب أيضا على أن يكونوا أفرادا يتمتعون بأساليب تفكير أكثر تحضرا وأكثر خيالية أيضا، إن مثل هذه الخصال لا يمكنها إلا أن تجعل تعليمك الفنون أمرا ملائما تماما وذلك من اجل تحقيق تلك الأبعاد الكاملة للتنمية."6

أولا : التنمية الثقافية و الحكامة:

تزايد الاهتمام مؤخرا بقضية الحكامة وإدارة شؤون المجتمع والدولة، كعامل محدد لنجاح التنمية أوفشلها، لأسباب وملابسات متعددة.منها خبرة البلدان النامية والبلدان التي اتسع فيها نطاق تدخل الدولة في إدارة الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، اتساعا كبيرا في غياب أطر وقنوات ديمقراطية للمشاركة الشعبية في إتخاد القرارات والرقابة على تنفيذها، فكانت النتيجة تضخما بيروقراطيا وقطع العلاقة بين الفاعلين السياسين والمثقفين مما نتج عنه ضياع الكثير من المكاسب التنموية على المستوى الثقافة و المسرح .بالإضافة أنه في سياق السياسات الليبرالية الاقتصادية والثقافية الحديثة التي عمدت على تقليص دور الدولة في المشاريع الثقافية الفنية واستهدفت المجتمع المدني باعتباره فاعلا وشريكا أساسيا في مسلسل التنمية.

وأخيرا أرتبط الاهتمام بالحكامة و التدبير الناجع والفعال ارتباطا متصلا بالتنمية البشرية. فقد اعتبر البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة إن الحكامة والتنمية البشرية وخاصة في المجال الثقافي وجهان لعملة واحدة فلا يمكن أن نحقق وقعا تنمويا بدون حكامة جيدة .كما أن التنمية لا يمكن أن تتحقق إلا بالاهتمام بالإنسان

ثانيا : التنمية الثقافية المحلية (المسرح نموذجا)

"عموما إن انتماء المسرح إلى سياق ثقافي يجعل منه مكونا للهوية القومية، وسندا للمطالب الثقافية لهذه الهوية، بوأ هذا الشكل الثقافي مكانة مرموقة في الوعي العام للمجتمعات الحاملة لهذه الثقافة، وإذا أضفنا إلى ذلك الأدوار التي لعبها عبر تاريخه الطويل، في تشكيل الحياة الثقافية لهذه المجتمعات منذ العصر القديم إلى اليوم، مرورا بالعصور الوسطى، التي أسندت له وظيفة الوعظ الديني، سنفهم لماذا يشكل اليوم معلما لاغنى عنه في المشهد الثقافي، ولماذا تجد النخب الثقافية والسياسية نفسها ملزمة بالتفكير بجدية في إجراءات وقائية وتحفيزية لاستمراره وتنوعه."7

إن التنمية تؤسس بانخراط جميع الفاعلين وتنسيق جهودهم من أجل المساهمة في تحقيقها، ويمكن تحديد الفاعلين في التنمية الثقافية المحلية:

- الفاعلون المحليون الرسميين في التنمية المحلية: الإدارات المحلية، الجماعات الترابية، الإدارة الترابية، المصالح الخارجية للوزارات.
- الفاعلون المحليون غير الرسمين في التنمية المحلية: القطاع الخاص، جمعيات المجتمع المدني الفنية، المنظمات الدولية غير الحكومية.

وبذلك "فإن التنمية المحلية باعتبارها مسلسلا متكاملا شاملا ومتعدد الأبعاد يضع جميع الفاعلين في تفاعل بهدف تحقيق العيش الكريم لكل مواطن، لذلك يحتاج تحقيقها تضافر الجهود ووضع آليات ونظم لتسهيل التشارك، وبالتالي ضمان الفعالية والاستمرارية لجميع الأنشطة. ووضع إستراتيجيات للتواصل من أجل نشر المعلومات وتبادل الخبرات، وذلك لضمان تدخل جيد.وخلق فضاءات لتسهيل التشاور والتنسيق، وذلك من أجل خلق مجال توافقي بين الفاعلين العموميين

والخصوصيين.وأخيرا تعني التنمية، بصفتها مسلسلا تفاعليا، نسج علاقات جديدة، تعتمد التنسيق والشراكة" 8

"وعندما نتحدث عن التنمية المحلية فإننا نقصد بذلك المسار الذي من خلاله يمكن أن تتوفر الظروف الملائمة لتحسين الحياة اليومية بشكل مستديم للمجموعة السكانية التي لها علاقة بمجال ترابي محدد، كما أن التنمية المحلية المقصودة تعتبر نتيجة لتنمية القدرات الذاتية للأفراد والجماعات المنظمة والغير المنظمة التي تنتمي لمجال ترابي معين قصد

تمكينها من استئصال أسباب تخلفها وتلبية حاجياتها بنفسها وفقا لما تتوفر عليه من مؤهلات ووفقا لما يتوفر عليه المجال من موارد.بهذا المعنى، إن العمل التنموي المحلي يقتضي تعبئة كل الموارد البشرية وغير البشرية التي يتيحها المجال الترابي بشكل تطوعي يكون الغاية من ورائه تضافر جهود كل الفاعلين من أجل تحقيق الأهداف المشتركة، فالمجال أصبح مفتوحا أمام كل الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين والمؤسساتيين للانخراط بشكل فعال وبتعاون وشراكة مع كل الأطراف من أجل تنسيق الجهود الرامية إلى تنمية المجال الترابي والرفع من مستوى أدائه 9

"والأمر الأكثر جوهرية الآن، هو أن الثقافة والفنون يمثلان جانبا مهما من تلك الجوانب التي تمنح التنمية والنمو معنى" والجدير بالذكر " أن يمكن أن تمثل جانبا من الحل، ولذلك فإن دعم الإبداع في الدول النامية، دعم قد يؤدي دورا ملحوظا في خفض الفقر المدقع، وفي تحقيق الازدهار المشترك أيضا، إنا ذلك من الممكن أن يحدث فقط إذا تولد لدينا اهتمام بوضع مثل هذه الثورة، وعلى نحو فعال داخل مجال تفكيرنا، وأيضا فإننا لو استطعنا أن نترجم ذلك التفكير إلى نشاط فعال"10.

إن الروح الجمعوية هي إحدى المميزات الأساسية لعصرنا الحاضر، وذلك اعتبارا للدور المتنامي للجمعيات في تحقيق التنمية بمفهومها الشامل وعلى جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، لكونها تشكل اللبنة الأساسية لمفهوم المجتمع المدني وأداته الرئيسية 11

وبما أن "الفنون تجسد الإبداع والابتكار فإنها تمتلك أيضا دورا رئيسيا في عملية تبني المعرفة من أجل التنمية وذلك لان تعليم الفنون يضطلع بأمور تفوق مجرد الزيادة في الاحتمالات الخاصة بالإنتاج. إن تعليم الفنون قد يساعد التلاميذ على تطوير حب الاستطلاع المعرفي لديهم، وان ينشئوا كذلك علاقات بين الفنون والموضوعات الأخرى التي يدرسونها، وأن يتقبلوا بسرور التعاون مع الآخرين، وأن يدركوا بأن الفوز لا يكون معناه، دائما، الكسب، وأن يتعاملوا بكفاءة مع الغموض، ومثل هذه المعرفة تساعد الطلاب أيضا على أن يكونوا أفرادا يتمتعون بأساليب تفكير أكثر تحضرا

وأكثر خيالية أيضا، إن مثل هذه الخصال لا يمكنها إلا أن تجعل تعليمك الفنون أمرا ملائما تماما وذلك من اجل تحقيق تلك الأبعاد الكاملة للتنمية." 12

الهوامش:

1 – لثروة الإبداعية للأمم هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية الى الإمام تأليف باتريك كابندا ترجمة شاكر عبد الحميد."ص26

2 – أحمد عبد الفتاح ناجي– التنمية في ظل عالم متغير– مطبعة العمرانية للاوفست الطبعة الاولى 2007 ص12

3– خليل سعيد دور المجتمع المدني في تفعيل المبادرة الوطنية للتنمية البشرية –رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في العلوم السياسية ص 66

4 – محمد نجيب بوليف – العالم العربي بين تحديات العولمة ومتطلبات التنمية البشرية – مطبعة طوب بريس– الطبعة الأولى – الرباط 2003 ص 97.

5–ابتسام "دليل السياسات الثقافية بالمغرب المركز المغربي للشباب والتحولات الديمقراطية بشراكة مع مؤسسة فريديرش إيبيرت ص12

6– ابتسام عالم المعرفة الثروة الإبداعية للأمم هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الأمام؟ تأليف باتريك كابندا ترجمة شاكر عبد الحميد ص.104

7– عز الدين بونيت المسرح والدولة منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة سلسلة دار الفرجة الطبعة الأولى 2010

9 – guide de l'associatif–2006 page 64

10 – " الثروة الإبداعية للأمم هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية الى الأمام؟ تأليف باتريك كابندا ترجمة شاكر عبد الحميد. ص30.

11 – عبد الرحمان السحمودي– الحماية الدستورية لحقوق الإنسان والحريات العامة بالمغرب–أطروحة لنيل الدكتوراه–جامعة محمد الأول كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية– وجدة الموسم الجامعي2006–2007–ص163.

12 – عالم المعرفة الثروة الإبداعية للأمم هل تستطيع الفنون أن تدفع التنمية إلى الأمام؟ تأليف باتريك كابندا ترجمة شاكر عبد الحميد ص.70